الفصل الثانى

ضياء الدين بن الأثير فى عصره

١ – بيئته

ولد ضياء الدين بن الأثير بجزيرة ابن عمر من اعمال الموصل وينسب إليها فيقال الجزرى ، وهى قرية صغيرة فى إقليم الجزيرة شمالى العراق على الشاطئ الغربى لدجلة شمالى الموصل ، ويذكر ياقوت أن سبب تسميتها بابن عمر لأن أول من عمرها هو الحسن بن عمر بن الخطاب[1] . يقابلها على الشاطئ الشرقى مكان نزه يسمى العقيمة .

وكان فى عهده يحيط بالبلدة سور قوى على نهر دجلة يضم داخله مسجدها والقلعة والمدرسة ، وكانت فى القرن السادس تتبع والياً من قبل أتابك الموصل ، ثم تولاها والده أثير الدين محمد ، وضياء الدين لا يزال صبيًّا .

وكانت له بساتين وضياع . قال عز الدين بن الأثير : « كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقى . . . وكان لنا بها عدة بساتين[2] » .

وانتقل هو وأسرته إلى الموصل وأتم بها أبناؤه تعليمهم ومن بينهم ضياء الدين ، والموصل حينذاك أتابكية عظيمة لآل زنكى ، وقد ازدهرت فى عهدهم ازدهاراً كبيراً .

وتعتبر الموصل أكبر المدن العراقية فى الشمال وأعظمها لأنها ثغر العراق الشمالى

---

(١) معجم البلدان ٣/١٠٢ .
(٢) أتابكة الموصل ٢٧١ .

ومفتاح الطريق بين الشمال وبغداد ، وملتقى الطرق بين فارس وبلاد المشرق وبلاد الروم والشام ومصر والمغرب . وكان لهذا الموقع العظيم على طريق التجارة القديم أثره على مركزها العمرانى والثقافى بين عواصم العالم الإسلامى والعربى . وقد انحدرت إليها بعض آثار الثقافة المشرقية كما اتصلت اتصالا مباشراً ببلاد فارس . وقيل إن اسمها مشتق من موقعها الجغرافى . لأنها تصل المشرق بالمغرب . وتعد أكبر مدن ديار ربيعة وتصب عندها بعض روافد دجلة الصغيرة حيث تتجمع وتكون مجرى واحداً .

وكانت الموصل شبه دائرية فى صورتها . ذكر المقدسى أنها بلغت فى زمنه فى القرن الخامس ثلث مدينة البصرة فى عصره ، إلا أنها اتسعت بعد ذلك وكثر سكانها وخاصة فى عهد آل زنكى فى القرن السادس ؛ ثم فى عصر خلفاء صلاح الدين فى القرن السابع . وقلعتها مربعة وتقع فى الشمال على مجرى مائى يسمى نهر زبيدة وبجوارها السوق والمسجد العتيق ، وتقع منازل سراتها على نهر دجلة وتمتد إلى مسافة بعيدة .

وبنيت بها المدارس ، وأكثر من عمارتها الأتابكة من آل زنكى ، فأقاموا المساجد والرباطات والمارستانات والقصور . وازدهرت حالها ، وراجت تجارتها وتوافد عليها الناس من كل مكان . وزارها ابن جبير فوجدها مدينة عظيمة حصينة فخمة « قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها للحوادث والفتن . قد كادت أبراجها تلتقى انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض» [1] .

وكان يفصل بين القلعة والبلد شارع متسع عتيد من أعلى البلد إلى أسفله وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق

وقال عنها ياقوت فى هذا العصر : « إحدى قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير كبراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهى محط رحال الركبان ، ومنها يقصد

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٣٤/٢٣٥ .

إلى جميع البلدان . . . وكثيراً ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب المشرق ، ودمشق لأنها باب المغرب ، والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل من لا يمر بها » . ويقول : « وكثيراً ما وجدت العلماء يذكرون فى كتبهم أن الغريب إذا أقام فى بلد الموصل سنة تبيّن فى بدنه فضل قوة وما نعلم لذلك سبباً إلا صحة هواء الموصل وعذوبة مائها . وليس للموصل عيب إلا قلة بساتينها وعدم جريان الماء فى رساتيقها ، وشدة حرها فى الصيف ، وعظم بردها فى الشتاء ، فأما أبنيتهم فحسنة جيدة وثيقة بهية المنظر لأنها تبنى بالنورة والرخام ، ودورهم كلها أبراج وسراديب مبنية ، ولا يكادون يستعملون الخشب فى سقوفهم البتة ، وقل ما عدم شىء من الخيرات فى بلد من البلدان إلا ووجد فيها[1] » .

وكان أكثر سكانها من القبائل العربية وخاصة من بكر وتغلب ، كما كان بها عدد كبير من الأكراد ، وقد غلبوا عليها منذ القرن الرابع الهجرى . قال ابن جبير عن أهلها : « أهلها أحسن طبعاً وأكرم حيلة من أهل بغداد ، وهم على طريقة حسنة ، يستعملون أعمال البر ، فلا تلق منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة . ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم ، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم[2] » .

بنى نور الدين بالموصل مسجداً ومدرسة ورباطاً للفقراء ، وكذلك فعل أخوه سيف الدين غازى بنى مدرسة سماها المدرسة الأتابكية ، وهى أحسن المدارس بها وأوسعها[3] وجعلها وقفاً على فقهاء الشافعية والحنفية ، وبنى رباطاً آخر للصوفية . وبنى بها قايماز التركى (المتوفى سنة ٥٩٤ هـ) متصرف المدينة فى عهد أمراء بنى زنكى الجامع المجاهدى ورباطاً ومدرسة ومارستانا بظاهر المدينة على نهر دجلة .

وكانت أكثر مدارسها على شاطئ النهر . وتولى التدريس بمدارسها الست على دجلة جماعة من أفاضل العلماء .

---

(١) معجم البلدان مادة موصل .
(٢) رحلة ابن جبير ٢٣٧ .
(٣) كتاب الروضتين ١ / ٦٥ .

وراجت تجارة المدينة وعم أهلها الثراء فى هذا العصر ، وكانت تجارتها تحمل إلى المشرق والمغرب على السفن ، وكانت تصدر نوعاً من الأقمشة الحريرية عرف باسم « الموسلين » نسبة إليها وكان يستورده الإيطاليون وعنهم شاع هذا الاسم فى سائر أوربا والعالم وكثرت الأموال فى أيدى حكامها وأهلها ، وقاموا بكثير من الإصلاحات وعمروا البلد وقاموا بأعمال واسعة للبر . ويقال إن مجاهد الدين قايماز واليها كان ينفق على الفقراء كل يوم مائة دينار غير ما كان يرتبه كل شهر لهم . وكان عليه لهم رواتب كثيرة بحيث لم يدع بالموصل بيتاً فقيراً إلا وأغنى أهله كما يقول صاحب المرآة[1] .

وأحاط ملوكها أنفسهم بمظاهر الثراء والجاه والترف ، فكان سيف الدين غازى يجمع المغنيات ، ويستمع للغناء ، ويجمع الطيور النادرة كالبلابل والغرار والببغاء . قال صاحب الروضتين : « واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية وأن السلطان صلاح الدين أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية »[2] .

٢ ـ نشأته وحياته

ولد ضياء الدين سنة ٥٥٨ هـ بجزيرة ابن عمر من أسرة عربية شيبانية عريقة ، فقد كان والده أثير الدين محمد بن عبد الكريم من سراة قومه . ولا نجد كثيراً عنه فيما بين أيدينا من المواجع ، كذلك لا يحدثنا عنه ضياء الدين كثيراً ، لكن ابنه الثانى عز الدين المؤرخ يذكر فى مواطن متفرقة من كتبه نتفاً من أخباره كلما عرضت مناسبة . وكان أثير الدين فيما جاءنا من أخباره رجلاً عاقلاً وقوراً ذا مكانة فى الدولة من آل زنكى أتابكة الموصل ، ويبدو مما أورده عز الدين أنه بدأ اتصاله برجال الشهيد عماد الدين زنكى مؤسس دولتهم بين عامى ٥٢٢ هـ و ٥٤١ هـ . أو فى

---

(١) مرآة الزمان ٨/٤٥٨ .
(٢) كتاب الروضتين ١/٢٥٥ .

خلال تسع عشرة سنة ، وعقب مقتله وتولى ابنه سيف الدين غازى ، ثم قطب الدين مودود عُهد إليه بولاية بلدته جزيرة ابن عمر وتولى خراجها أى خلال الفترة من سنة ٥٤١ هـ إلى سنة ٥٦٥ هـ . وكان أثناء ولايته أمرها بارًّا بأهلها ، لا يثقل عليهم فى تحصيل المكوس ومسح الأرض وجبى الخراج مما دعا إلى غضب الأتابك ووزيره عليه أحيانًا . فقد ذكر عزالدين[1] أن قطب الدين استدعى والده مرة ولامه لتهاونه فى الجباية . قال على لسانه : « استدعانى يومًا وهو بالجزيرة — وكنت أتولى أعمالها له — فلما حضرت عنده قال : بلغنى أنك تهمل هذه الجبايات ولا تحفظها . فقلت : إنى أعجز عن حفظها لأنى أكرن فى بيتى والدزدار يفعل فى القلعة ما يريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم ، وأخاف من الاستقصاء فيها لو دُعىَ على بعض هؤلاء الملوك — وأومأت إلى أولاده — لكان شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة يتحصل منها أضعاف هذا . فقال : جزاك الله خيراً نصحت وأديت الأمانة ، فأسرع فى عمارة هذه الأماكن التى تتحمل العمارة . قال : فقفلت وقد كبرت منزلتى عنده ولم يزل يثنى على » .

ويبدو من هذا النص حكمة الرجل وسياسته ودهاؤه ، وحبه لأهله وعشيرته ، فقد استطاع التوفيق بين خدمة أتابكه ومصلحة أهل بلدته . وكان يجمع إلى هذا الحب لمواطنيه والإخلاص لرؤسائه ، وحسن الرأى والنصيحة والعفة وعدم التكالب على المال فما يرويه كذلك ابنه عز الدين عنه ما دار مرة بينه وبين أتابك قطب الدين مودود قال : « دخلت إليه مرة فسألنى عما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره عما سألنى عن القرايا التى بها خاصة ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها فقلت له أنا أفعل ذلك بنفسى . فقال : وما الذى قُرر لك عليها فى مقابل تعبك ؟ فقلت : لى من إنعام مولانا ما لا حاجة لى إلى تقرير شىء آخر ، ثم المقرر لى من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا . فقال : لا يجوز تتعب بغير فائدة ثم أمر لى بعمالة خاصة جميعها فى بلاد الجزيرة ، ولما خرجت رأيتها

---

(١) «أتابكة الموصل» طبعة فرنسية ضمن سلسلة «وثائق الحروب الصليبية» ص ٢٦٨ / ٢٦٩ . ضياء الدين بن الأثير

كثيرة يحصل منها ما يزيد على سبعمائة دينار أميرى ، وليس لى بها من العمل كثير أمر ، فقلت فى نفسى ربما لا يعلم مقدارها فإذا علمه يظن أننى اغتنمت غرته ، فأرسلت له مع صاحبه أقول له : إن هذه العمالة يُتحصل منها فى هذا الرخص كذا وكذا ديناراً ، وأنا أقنع ببعض ذلك . قال : فلما سمع قولى ضحك وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له»[1] .

وكان لكرم خلقه وحسن تدبيره وولائه أثرها فى نفس أتابك الموصل إذ قويت ثقته به ، وصار يطمئن له فيما يكله إليه من عمل ويجزيه عنه خير الجزاء. وزاد تقريب قطب الدين له فولاه الخزانة العامة . قال عز الدين عن والده : « وكان — أى قطب الدين — يدخل إلى الخزانة بعض الوقت ونحن فيها إذ كنت أتولاها فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئاً صالحاً ، وربما يرسل إلى من غاب سهمه[2] » .

وانتقل بهذا المنصب الجديد إلى الموصل وظلت مكانته فى قربى ووثوق بالأتابكة وكذلك أولاده من بعده حتى وثقوا بهذا البيت ، وصار أبناؤه يخدمون بيت قطب الدين فى ولاء وتوالوا لهم الوزارة والكتابة على ما ستعرف بعد قليل .

وبلغ من الجاه والمنصب ما تتوق إليه النفوس ، كما بلغ من الثروة القدر الوفير الذى مكن له ولأولاده أن يعيشوا فى بحبوحة وخير وفير . فكانت له ضياع وبساتين ببلده وبالعقيمة مقابلها ، وكانت له تجارة تغدو وتروح بين الموصل والشام ومصر وتمخر البحر إلى أوربا . ويذكر عز الدين أن الفرنج نهبوها مرة عام سبع وستين وخمسمائة باللاذقية وأخذوا مركبين منها مملوءين بالأمتعة[3] .

إذاً فقد اجتمع لأسرة ضياء الدين الأصل العربى الكريم والثراء والجاه وكان له عدد من الإخوة نبغ بينهم ثلاثة ، اثنان يكبرانه هما مجد الدين (ولد سنة ٥٤٤ هـ) وعز الدين (ولد سنة ٥٥٥ هـ) .

---

(١) أتابكة الموصل ص ٢٧٠ .
(٢) المصدر نفسه
(٣) أتابكة الموصل ص ٢٧٠ .

ولا نعرف كثيراً عن طفولته . ولاما تلقى من العلوم ، وكل ما نعلمه أنه ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٥٨ هـ . وأغلب الظن أيام أن كان والده متولياً أعمال الجزيرة فتلقى دروسه الأولى كغيره من أطفال المسلمين والعرب فى عصره ، فحفظ القرآن والحديث وتعلم شيئاً من اللغة والأدب والحساب . وحفظ بعض الأحاديث والشعر القديم . وقد ذكر أخوه عز الدين أنه كان يتردد على المدرسة بجزيرة ابن عمر يسمع شيئاً من الحديث سنة ٥٧٤ هـ .

وانتقل بعد ذلك مع أسرته إلى الموصل حيث عمل أبوه صاحب خزانة قطب الدين مودود ، أى بعد سنة ٥٦٥ هـ . ولا نستطيع تحديد الزمن بالدقة ، وقد ظل والده يعمل فى خدمة الأتابكة إلى أن استعفى وتولى بعده ابنه مجد الدين خدمة عز الدين مسعود فى حدود سنة ٥٨٩ هـ[١] .

وظل ضياء الدين يواصل دراسته فى صباه وشبابه المبكر بالموصل ، فى إحدى مدارسها الكثيرة ، وأن يدرس على جماعة من شيوخها المشهورين وخاصة على أخيه الأكبر مجد الدين العالم المحدث .

وانتقل ضياء الدين إلى الشام عام ٥٨٧ هـ[٢] ، والتحق بخدمة صلاح الدين وأبنائه وعمره إذ ذاك تسعة وعشرون ربيعاً . ويذكر ابن خلكان أنه لدى وصوله إلى دمشق اتصل أولا بالقاضى الفاضل ، فألحقه بخدمة السلطان ، وكان القاضى الفاضل يعطف على الأدباء والكتاب ، ويجل العلماء ويقربهم ، وربما كانت له صلة بأخيه الأكبر مجد الدين ، أو كان قد سمع به وبعلمه . ولا نستطيع أن نحدد مكان التقاء الاثنين لأول مرة ، إلا أننا نعلم من حوادث هذه السنة ٥٨٧ هـ أن صلاح الدين كان مشغولاً بحرب الصليبيين على سواحل فلسطين فى عكا وغيرها من المواقع .

ويذكر ابن خلكان أن القاضى الفاضل قدم ضياء الدين للسلطان فى شهر

---

(١) أتابكة الموصل ٣٤١ .
(٢) المثل السائر ٢/٣٦٦ .

جمادى الآخرة من السنة نفسها . وكان السلطان إذ ذاك مستجمعًا فى بيت المقدس شتاء ، وقد سرح جنده فى إجازة استجمام . وكان ابنه الأفضل فى دمشق ، وسمح بالتحاق ضياء الدين بخدمة ابنه الأفضل على ، وربما التقيا من قبل حول عكا فأعجب الملك الأفضل بالكاتب الشاب ورغب إليه أن يلازمه ، واستأذن أباه فى أن يستلحق ضياء الدين ، فبعث السلطان لضياء الدين بأن يختار بين البقاء فى صحبته أو اللحاق بابنه فاختار جوار الأفضل ولحق به فى شوال سنة ٥٨٧ هـ . وتلازما منذ ذلك التاريخ ولم يفترقا ، وعاد معه فى خريف ذلك العام وبداية العام التالى سنة ٥٨٨ هـ حيث كانت جيوش السلطان تتجمع من جديد لتقف مترصة بجيوش الصليبيين المتحفزين على الساحل قرب يافا وغيرها من الثغور .

ويذكر ضياء الدين أنه كان بأرض فلسطين « قبالة العدو الكافر من الفرنج – لعنهم الله – وتقابل الفريقان على مدينة يافا عام ثمان وثمانين وخمسمائة[1] » .

ولم يحرز أحد الفريقين انتصاراً حاسمًا فى هذا العام فتوقفا عن القتال وعقدت الهدنة ، وعاد السلطان وولده الأفضل وكبار رجال الدولة كالقاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والقاضى ابن شداد وضياء الدين بن الأثير جميعًا إلى دمشق .

وفى عام تسع وثمانين أى فى العام الثالث لحضور ضياء الدين للشام توفى صلاح الدين وتولى من بعده ابنه الملك الأفضل على الشام ، وكان شابًا فى الثانية والعشرين من عمره يملؤه الغرور والطيش ، ويحالفه سوء الحظ ، وتنتابه من حين لآخر نوبات تدل على الاضطراب وعدم الاتزان ، فتارة تراه قاسيًا عنيفًا ، وتارة يغلبه الضعف ويستسلم للبكاء . وحينًا تراه معربداً يشرب الخمر ويستبيح الحرمات ويسهر فى معاقرة ملاذه للصباح ، وحينًا يستبد به الوجد والتصوف والتزام حدود الدين فيعكف على القرآن يقرؤه أو ينسخه بخطه ، تاركًا الأمور كلها بيد وزيره الشاب ضياء الدين . والأفضل بعد هذا وذاك كله أديب يعشق الأدب وينظم الشعر[2] .

---

(١) المثل السائر ١/٥٥ ط محيى الدين عبد الحميد .

(٢) يروى له صاحب مرآة الزمان شعراً ٨/٦٢٨ ويقول عنه ابن خلكان « وكان يحب العلماء ويعظم حرمتهم ، وله شعر » وفيات ٢/٥٦ .

وتصرف الملك الأفضل بعد وفاة والده صلاح الدين تصرفاً يوحى بالتسرع والحمق إلى حد كبير . نفّر منه كثيراً من كبار رجال الدولة والمقربين من والده . ومن ذلك أنه بعد وفاة أبيه تصدر دست الحكم ولم يفرغ المشيعون من جنازته ، ومنه طردُه الأمراء الكبار ، وإقصاء كبار معاونى والده عن بلاطه بإيعاز من وزيره ضياء الدين كما يقول أكثر المؤرخين . قال ابن كثير : « وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير ، فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب ، وأقبل على اللعب وشرب المسكر واللهو . واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وهو الذى كان يحدوه إلى ذلك فتلف وأتلفه ، وضلّ وأضلّه وزالت النعمة عنهما[1] » .

وقال عماد الدين الأصفهانى « ... ووزيره الجزرى قد بُلى الناس منه ببلايا وهو فى غفلة عن تلك القضايا ، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه وأنهم يميلون إلى أخيه ، فيصدقه الأفضل فيما يدّعى ، فصارَ يَبْلُغُ العادلَ عنه أحوالٌ ما تعجبه ، بل تغضبه ، وصار يتصل به كلُّ من هاجر من الشام إلى مصر ، وما منهم إلا من يشكو الوزير الجزرى[2] » .

كذلك ذكر المؤرخون أن أهل دمشق ضجوا من سياسة الوزير الكاتب ضياء الدين ، فقال فيه أحد شعرائهم[3] :

متَى أَرى وزِيرَكمْ ومالَهُ من وَزَرِ
يَقْلَعُه اللهُ فــذا أوانُ قَلْعِ الجزَرِ (ى)

ومن هذه النصوص التاريخية نتبين حقيقة فى سياسة الوزير ضياء الدين وصاحبه الأفضل وهى سخط رجال الدولة الكبار عليهما . وقد أشرنا إلى أن ذلك ربما كان راجعاً إلى طبيعة فى خلق الأفضل وتصرفاته ، فقد غلب عليه الطيش والاضطراب ، وربما وجد من ضياء ما ساعده على ذلك ، وقد نشمّ مما جاء

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٩ .
(٢) كتاب الروضتين ٢/١٣٠ .
(٣) المصدر نفسه ٢/٢٢٨ .

من أخبار ضياء الدين ضرباً من الاعتداد الشديد بالنفس والافتقار إلى الكياسة وحسن التصرف والسياسة ولين الجانب على عكس والده أثير الدين .

قال فيه العماد : « وتفرد الوزير فى توزره ، ومد الجزرىُّ فى جزره[1] ».

وربما ساعد على تجمع الناس ضدّ الملك الأفضل وضياء الدين بالإضافة إلى خلقهما الخاص نفور الأمراء شخصية الأفضل كخليفة لأبيه ونفور من ضياء الدين وزيره لتدخله ، أو لانتهازيته وتقدمه ، وهو الغريب أو الأجنبى على المجموعة القديمة التى لازمت صلاح الدين ، على الأمراء الكبار ورجال الدولة العظماء وتطاوله عليهم أحياناً ، ونلاحظ تطاوله على الوزير الخطير والكاتب ونائب الملك أحياناً فى مصر القاضى الفاضل فى كتابه المثل السائر ومحاولته الإقلال من شأنه وتقديم نفسه عليه فى الكتابة .

وربما رأى رجال صلاح الدين المخلصون تدخل هذا الرجل فى شئون دولته وهو أصلاً ابن أحد كبار رجال دولة الأتابكة الموصليين الأعداء التقليديين والمنافسين الخطرين فى المعسكر العربى الإسلامى خطراً على دولتهم أو تطفلاً .

وهكذا تجمع الساخطون ممن طردهم الأفضل من دمشق بإيعاز من ضياء الدين فى مصر عند العزيز عثمان وعمه العادل ، وأوغروا صدريهما للإطاحة بهما . ودبت عقارب الفتنة ، واتسعت شقة الخلاف ، وثارت نار الحرب بين الأخوين عثمان والأفضل وزكاها العادل ليكسب من ورائها . وليحقق أطماعه فى وراثة ملك أخيه العريض .

وحاصر العزيز عثمان دمشق ودخلها ، وتدخل العادل ، فأصلح بين الأخوين ونصح الأفضل بإقصاء وزيره ضياء الدين ، ثم غادر دمشق بعد أن زوج الأفضل ابنته واصطحب معه العزيز متجهين إلى مصر . وما لبثا غير قيل حتى جاءتهما الأنباء من جديد بعودة الأفضل إلى سيرته الأولى ، ورجوع ابن الأثير إليه ، وإمعانه فى غيه وسوء تصرفه ، فنهض العادل ومعه العزيز مرة أخرى ، وانتزعا دمشق

---

(١) المنتصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ٣ / ٨٨ .

من الأفضل، وقد أعانهما قادة الأفضل وأمراؤه الذين أغضبهم ابن الأثير وأبعدهم عن بلاطه فسلموا دمشق خيانة لسيدهما . قال ابن قايماز فى مرآة الزمان[١]: « أما الأفضل فإنه لما عاد إلى دمشق ازداد وزيره الجزرى من الأفعال القبيحة وآذى الأكابر من الدولة ، والأفضل يسمع منه ولا يعدى أحداً ، ولا يخالفه ، فكتب قايماز النجمى وأعيان الدولة إلى العادل يستدعونه ، فأرسل العادل إلى الأفضل يقول : ارفع يد هذا الأحمق السيئ التدبير ، القليل التدقيق ، فلم يلتفت فاتفق مع العزيز على النزول على دمشق[٢] » .

وكانت النتيجة أن استسلم الأفضل كما يقول المؤرخون ، وفتحت أبواب دمشق بعد أن تخلى عنه أنصاره ، ونزل من القلعة مستسلماً يبكى ويعتذر ويطلب الصفح ، وانتهى الأمر بينه وبين عمه وأخيه إلى الصلح وأن ينتقل من ملك دمشق والشام إلى ولاية صغيرة ،فى صرخد . ودبر حاجبه جمال الدين أمر هروب ابن الأثير مختفياً فى جملة الصناديق التى تحمل متاع الأفضل ليلاً[٣] .

وبالاستيلاء على دمشق ونفى الأفضل إلى صرخد ، وهروب ضياء الدين مختفياً تنتهى المرحلة الثانية من حياة صاحبنا الحافلة المثيرة ، وتنتهى إلى حد كبير أطماعه السياسية وآماله العريضة التى كان يبنيها لنفسه كرجل دولة له شأنه . ولم يمض على مجيئه إلى دمشق من بلده الموصل مهاجراً أكثر من أربع سنين .

وأهم ما أثر فى ثقافة ضياء الدين وفنه الكتابى فى هذه الفترة اتصاله بعلماء دولة صلاح الدين وكبار كتابه وعلى رأسهم القاضى الفاضل وعماد الدين الأصفهانى وقد كتب الأفضل كثيراً من الرسائل الديوانية ، كما تبادل بعض الرسائل الإخوانية حفظ لنا نماذج منها فى كتابه المثل السائر وفى ديوان رسائله .

وحرص ضياء الدين أثناء توليه زمام الأمور فى دمشق مع الأفضل على اقتناء

---

(١) مرآة الزمان طبع الهند ١٩٥٢ م جـ ٨/ ٤٤٣ .
(٢) مرآة الزمان ٨/٤٤٣ .
(٣) مرآة الزمان ٨/٤٤٣ .

الأموال . قال ابن الجوزى : إنه أخذ أموالا كثيرة مما ادخره من أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين وهرب بها إلى بلاده[١] .

وصحب ضياء الدين الأفضل إلى « صرخد » ، ويقال إنه خرج من دمشق إلى الموصل ، ثم عاد فلحق بالأفضل فى « صرخد » وتبادل معه قبل اللحاق به بعض الرسائل ، واتصل فى الموصل بخدمة نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩هـ – ١١٩٣م) – ٦٠٧هـ – ١٢١٠م) وظلا متصلين عن قرب أو بطريق الرسائل حتى تجددت الأحداث بموت العزيز عثمان صاحب مصر سنة ٥٩٥ هـ ، ولاح فى الأفق بارق أمل جديد ، فدب النشاط فى تلك الصلة بين الأفضل ووزيره السابق ، وتحفز الأفضل لاستعادة السلطة ، ووراثة ملك أخيه وكان عمه العادل مشغولا بحصار أحد حصون ديار بكر ، وكانت لا تزال المناوشات والنزاع قائما بين أتابكة الموصل ومن تبعهم وبين العادل وأبناء صلاح الدين .

واتفق بعض قادة العزيز بعد وفاته على استدعاء الأفضل إلى مصر ليكون وصياً وأتابكاً لابن العزيز الطفل . وجاء الأفضل القاهرة من الشمال متخفياً حتى لا يعلم عمه العادل أو بقية أعدائه فى مصر والشام فيقفون فى طريقه . واستولى على مقاليد الأمور بالقاهرة فى ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ ، ولحق به ضياء الدين بن الأثير بعد أن ظن الأمور قد استتبت . فبعد استيلاء الأفضل على الحكم بعث إليه برسالة تهنئة بملك مصر من الموصل على لسان صاحب الموصل ، يقول فى المثل السائر[٢] :

«ومن ذلك ما كتبته فى صدر كتاب إلى الملك الأفضل على بن يوسف أهنئه بملك مصر سنة خمس وتسعين وخمسمائة فقلت : المملوكُ يُهنِّئُ مولانا بنعمة الله المؤْذنةِ باسْتِخْلاصِهِ ، واجْتِبائِهِ وتمكينهِ حتى بَلَغَ

---

(١) المنتظم .

(٢) المثل السائر ١ / ٢٦٨ .

أَشُدَّه واستَخْرجَ كَنْزَ آبائِه ، ولو أَنصف لهَنَّأَ الأَرضَ منه بوابِلها ، والأُمةَ بكافِلها ، وخصوصاً أَرضَ مِصر التى خُصَّتْ بشَرف سُكْنَاه ، وغَذَتْ مِن فَيْض البحْرِ وفَيْضِ يُمناهُ » .

وأرسل إليه على لسان نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل كتاباً آخر يتضمن تعزية فى أخيه وتهنئة بملكه الجديد قال فى المثل السائر : « . . . أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فبوارثة الملك بَعْدَه . . .[1] » .

وأسرع ضياء الدين بالسفر إلى مصر فى العام نفسه (سنة ٥٩٥هـ) ليتصل بخدمة الأفضل مرة أخرى ، ومكث فى القاهرة عاماً وبعض عام (من سنة ٥٩٥ هـ إلى سنة ٥٩٦ هـ) وذكر شيئاً عن هذه الرحلة إلى مصر فى «الوشى المرقوم» ، فقال : « وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة[2] » .

واتصل بالقاهرة بجماعة من علمائها وخاصة علماء اللغة والأدب ، وتركت إقامته فى القاهرة ومصر آثارها على إنتاجه وكتابته ، يذكر ابن خلكان أن له رسالة فى « مصر والنيل » يقول فيها : « وعَذُبَ رُضَابه فضاهى جنى النحل ، واحمَرَّ صفيحُه فعلمت أنه قَتَلَ المُحِلّ » .

واشترك فى الحياة الأدبية ، وناظر العلماء والأدباء ، وسجل بعض ذلك فى كتبه قال : « ورأيت الناس مكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذاك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو نواس الحسن بن هانئ ، فلم يذكروا لى فى هذا شيئاً ، ثم إنى فاوضْتُ عبدَ الرحيم بن على البيسانى فى هذا فقال إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس . ولقد صدق فيما قال » .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٥٤ .
(٢) الوشى المرقوم ص ١١ .

ولم يمهله القدر طويلاً بالقاهرة ، إذ ما لبثت الرياح أن جرت بغير ما يهوى فعاد العادل من الشمال بعد وفاة العزيز ، وكان الأمل الذى يراوده بالانفراد بملك أخيه لا يزال يقوى ووجد الفرصة مواتية بوفاة صاحب مصر ، فأراد أن يملك مصر ويخلع عنها الأفضل لأنها بيضة الملك وسرته ، ومن امتلكها سيطر على بقية دولة صلاح الدين ، ولما علم الأفضل بوصول عمه إلى مصر وبنيته فى خلعه هرب ، وفى أعقابه وزيره ضياء الدين متخفياً مرة أخرى . ويقال إنه صحب الأفضل متخفياً للمرة الثانية إلى سميساط إحدى ولايات الشمال الصغيرة .

وتم الاتفاق بين الأفضل وعمه العادل على أن يسلم له الأفضل حكم مصر نظير أن يخرج هو إلى بعض بلاد الشمال حيث أعطاه العادل ميافارقين وحرّان وسميساط من بلاد الجزيرة. ولكن الأمور لم تستقر بينهما مع ذلك وظل الأفضل فى محاولاته لاستعادة ملك أبيه من عمه فسار بجيش سنة ٥٩٧ هـ يؤازره أخوه الملك الظاهر صاحب حلب لحصار دمشق ، وكان عليها أحد أبناء العادل الملك المعظم عيسى . ولكنهما فشلا فى الاستيلاء عليها ، وكان الملك المعظم قد أحسن السيرة ، واجتذب قلوب أهل دمشق فأعانوه والتفوا حوله ، وخاصة عند علمهم بعودة الأفضل. وعاودا حصار دمشق مرة أخرى سنة ٥٩٨ هـ . ولكن الأفضل عاد ثانية مدحوراً إلى الشمال إلى حمص ثم إلى سميساط التى لم يبق له سواها[1].

وازم ضياء الدين الأفضل فى سميساط سنوات من سنة ٥٩٦ هـ إلى سنة ٦٠٦ هـ أو سنة ٦٠٧ هـ ، وشاهد اندحار صاحبه ، وفشل كل محاولاته لاستعادة ملكه ، وتقلصت آماله واقتصرت على تلك المدينة من مدن الشمال بعد الملك العزيز والجاه والسلطان . وفى تلك الأثناء دبت الوحشية بينهما . ولم يلبث الأفضل أن انقطعت به الأسباب واختلف مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب ، وأصبح خلفاء أبيه جميعاً ضده ، وحالفه سوء الحظ ، فلم يجد مخرجاً من تلك الخطوب التى حلت به

---

(١) راجع الروضتين ٩/٢٣٧ ، وفيات الأعيان د/٣٠ ، والمختصر ٢/٩٧ – ١٠٠٠ .

إلا أن يلجأ إلى صاحب الروم من سلاجقة آسيا الصغرى — فيضع نفسه وولايته تحت إمرته ويدين له بالولاء ويقطع خطبة عمه ويخطب له[١] يريد بذلك أن يرد على نكايته بنكاية ويقابله على تآمره بخيانة !

ويشير ضياء الدين إلى هذه المحن فى حياته مع أميره فى سميساط وبلاد الروم فى مواضع كثيرة من المثل السائر .

من ذلك قوله[٢] : « ومن ذلك ما كتبته من فصل أصف فيه الحمى وكنت إذ ذاك بحصن سميساط وهو بلد من بلاد الأرمن» وكتب رسالة أخرى إلى بعض أصدقائه يصف له شدة البرد فى تلك الجهات[٣] « وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه » .

ويغادر ضياء الدين الأفضل بعد زوال دولته ، وخروجه على عمه وإخوته إلى أعدائهم سلاجقة الروم ، فيلجأ إلى الملك الظاهر صاحب حلب سنة ٦٠٧ هـ[٤] ولم يكن اللقاء بينه وبين الظاهر جديداً ، بل سبقه لقاء آخر فى سفارة له بين أخيه الأفضل وبينه مرات[٥]، وربما ظن ضياء الدين أن خروجه عن كنف الأفضل إلى الظاهر سيبعد عنه نجم النحس الذى لازمه وأنه ربما حقق بعض ما خاب فى تحقيقه مع الأفضل ، ولكن سوء الحظ أبى إلا ملازمته حتى فى صحبته للظاهر . فلقيه الظاهر بفتور ، وربما كان ذلك لحذره منه وحرصه من مغامراته وتصرفاته أو لعله كان حريصاً على رضا رجاله وقواده ، وكان كثير منهم من أعوان والده . والذين قد يسوؤهم تدخل ضياء الدين وخاصة بعد أحداث دمشق والقاهرة .

ولم يبق فى حلب طويلاً ، فأسرع فى لم شمله متجهاً إلى موطنه الموصل ولا نستطيع أن نحدد مدة بقائه فى حلب إلا أنه من الراجح أنه لم يتم بها عاماً ،

---

(١) المختصر ٣/١٠٤ .
(٢) المثل السائر ص ٣٩٤ طبعة سنة ١٢٨٢ هـ ببولاق .
(٣) المثل السائر ص ٤٢٤ .
(٤) وفيات الأعيان ٥/٢٦ .
(٥) أشار إلى ذلك فى المثل السائر أكثر من مرة .

فإنه كتب لعز الدين مسعود رسالة عقب توليه الملك سنة ٦٠٧ هـ بعد وفاة أبيه وهى السنة نفسها التى غادر فيها جوار الأفضل فى سميساط والظاهر فى حلب .

وانتهى به المطاف مرة أخرى بالموصل فى ذلك العام ؛ والتحق بخدمة أميرها عز الدين مسعود الثانى فى أولى سنوات توليه (٦٠٧ هـ — ٦١٥ هـ) وكان أخو ضياء الدين الأكبر مجد الدين المبارك قد توفى قبل وصوله بشهور سنة ٦٠٦ هـ بينما كان أخوه الثانى عزالدين فى خدمة البلاط .

وتنقل بين الموصل وإربل وبغداد فى هذه الفترة الأخيرة من حياته منذ ٦٠٧هـ إلى سنة ٦٣٧ هـ ؛ فذهب إلى إربل سنة ٦١١ هـ ، ثم إلى سنجار ثم عاد إلى الموصل سنة ٦١٨ هـ ، ثم ذهب فى سفارة إلى بغداد .

وكانت هذه الفترة التى تنقل فيها بين الموصل وإربل وسنجار فترة نزاع بين البلاد الثلاثة فقد كانت إربل وسنجار يعاضدهما الأشرف موسى ضد الموصل وعليها خلفاء الملك مسعود من أبناء زنكى ، وانتهى النزاع بين إربل والموصل ، وتم الصلح بين كوكبورى صاحب إربل وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل والوصى على أميرها سنة ٦١٧ هـ ، وكان إذ ذاك الأمير ناصر الدين محمود (٦١٦ — ٦٣١ هـ) وتولى طفلاً فى الخامسة وقام على دولته أتابكه بدر الدين .

ولزم ضياء الدين بلاط ناصر الدين محمود وخدم أتابكه لؤلؤ وكتب له الإنشاء وظل كذلك إلى أن مات ناصر الدين محمود وتولى لؤلؤ الملك سنة ٦٣١ هـ ، وهو الذى أوفده فى سفارة إلى خليفة بغداد فى السنة التى مات فيها سنة ٦٣٧ هـ .

وظل ضياء الدين طوال تسعة عشر عاماً ، وهى الفترة الأخيرة من عمره مستقراً بالموصل بعد طول أسفاره شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً سعياً وراء المجد والغنى ، وتفرغ للأدب قراءة وكتابة وتعليماً . وقال ابن كثير فى حوادث سنة ٦٢٧ هـ ، بعد تولية الخليفة المستنصر العباسى ببغداد « وقدم رسولٌ من صاحب الموصل يوم غرة شعبان يحمل رسالة من الوزير ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن الأثير فيها

التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة[١]» .

وظل يدرس كتبه وخاصة « المثل السائر » لطلبته ، وذاع أمره بين الناس وتوافد عليه طلاب العلم يتزودون من فضله وأدبه ؛ كذلك تولى تدريس كتب أخيه مجد الدين المبارك . وقد لقيه فى هذه الفترة من علماء العصر على بن أنجب المعروف بابن الساعى صاحب تاريخ « الجامع المختصر » والمتوفى سنة ٦٧٤ هـ ؛ وجلس إليه وحدثه بكتب أخيه[٢] .

وتمنى ابن خلكان — وكان وقتئذ بإربل ومر بالموصل — أن يلتقى به ليأخذ عنه شيئًا ، قال : « وقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات وهو مقيم بها ، وكنت أود أن أجتمع به لآخذ عنه شيئًا لما كان بينه وبين الوالد من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك[٣]» .

كذلك ذكر ابن خلكان فى ترجمة ابن الصائغ أحد علماء حلب : « وكنت يومًا عند ابن الصائغ وقد قدم عليه من الموصل رجلٌ من فضلاء المغاربة فى علم الأدب فحضر حلقته وبحث فى درسه بحث رجل فاضل ، وجرى ذكر مباحث جرت له بالموصل مع جماعة من أدبائها وقال : كنت عند ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، قال فتحاورنا وتناشدنا ، وأنشدته قول بعض المغاربة[٤]» .

وبعد أن ترك ضياء الدين للأدب والعلم ثروة من رسائله ومؤلفاته كما خلد اسمه بين علماء عصره وطلاب علمه توفى سنة ٦٣٧ هـ ، وقد بلغ من العمر ثمانين عامًا .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/١١٤ .
(٢) الجامع المختصر ٩/٢٩٩ .
(٣) وفيات الأعيان ٥/٢٦ .
(٤) وفيات الأعيان ٦/٤٨ — ٤٩ .

٣ – ثقافته وشيوخه

تلقى العلم صغيراً فى مدرسة بلدته جزيرة ابن عمر ، ثم أتمه بالموصل بمدارسها التى أشرنا إليها ، وكان شافعيًّا كأبويه وإخوته ، وكانت الشافعية مذهب كثير من أمراء العصر وكبار رجاله وخاصة بنى زنكى وبنى أيوب ، وقد شجعوا فقهاء المذهب وبنوا لهم المدارس وأعانوهم بالمال .

واهتم ضياء الدين بدراسة القرآن والحديث . وحفظه صغيراً كما استوعب كثيراً من الحديث حفظًا وتفسيراً ، واستعان بهما فى دراساته البيانية وفى كتابته إذ اقتبس منهما ، وضمنهما كثيراً من كتاباته ، وتتلمذ فيهما على أخيه الأكبر مجد الدين صاحب الكتب المشهورة فى الحديث ورجاله .

كذلك نستطيع أن نقول مما أورد فى كتبه إنه قرأ من الكتب المتصلة بالقرآن « جواهر القرآن » للغزالى و « تفسير الكشاف » للزمخشرى . وعن اهتمامه بالحديث يقول فى كتاب «الوشى المرقوم» : « وكنت أتعبت نفسى زمانًا فى ذلك حتى جمعت كتابًا يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية ، كلها يحتاج إليه فى أسباب الكتابة ، وكنت ألزم مطالعة ذلك الكتاب لزوم المحصل ، ولا أزال فى مطالعته كالحال المرتحل، حتى صار لدى مقصوداً وبلسان قلمى معقوداً[1] » .

وقرأ فى الفقه وأصول الدين بعض كتب أبى حامد الغزالى مثل : « إحياء علوم الدين » و « كتاب الأربعين » كذلك قرأ له فى أصول الفقه كتابًا لم يعينه .

وقرأ فى اللغة والنحو وعلم البيان ، والأدب مجموعة كبيرة . قال ابن خلكان : « وانتقل مع والده إلى الموصل وبها اشتغل وحصَّل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفًا صالحًا من النحو واللغة وعلم البيان وشيئًا كثيراً من الأشعار » .

---

(١) الوشى المرقوم ص ٥ .

فى اللغة قرأ لأبى على الفارسى ، وقرأ للمبرد كتاب الروضة وربما كتاب الكامل أيضًا ، والخصائص لابن جنى ، والأمثال للميدانى وإصلاح ما تغلط فيه العامة لأبى منصور الجواليقى . وفى الأدب كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى ومقامات الحريرى ، وفى الشعر ديوان الحماسة لأبى تمام ، واستوعب أكثره ونقل عنه واستشهد بما فيه . كما قرأ اللزوميات لأبى العلاء المعرى ، وله عليه مآخذ ، ونقائض جرير والفرزدق ودواوين كثير من الشعراء القدامى والمعاصرين ورسائل مشاهير الكتاب أمثال أبى هلال الصابى .

يقول عن نفسه : « حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة مالا أحصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وأبى عبادة البحترى وشعر أبى الطيب المتنبى ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها الدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعانى ، وصار الإدمان لى خلقًا وطبعًا[1] » .

ولم يكن اهتمامه بشعر هؤلاء الشعراء الثلاثة من وحى ذوقه فحسب ، بل كان صورة لذوق عصره وبيئته فقد اهتم الناس فى زمانه بأشعارهم بين حفظ وشرح واقتباس وتقليد أو معارضة .

ويعبر ضياء الدين فى مناسبة أخرى عن هذا الاهتمام من جانبه بشعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فيقول : « وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد . وأبى الطيب المتنبى وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعُزّاه ومناتُه الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء[2] » .

ومحصوله فى البيان وكتب البلاغة والنقد أوفر من غيرها .

قال فى الجامع الكبير : « أما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره ، ولا يعرف كنه أمره إلا بالاطلاع على علم البيان الذى هو لهذه الصناعة

---

(١) المثل السائر ٢/٢٦٩ .
(٢) المثل السائر ٢/٣٦٨ .

بمنزلة الميزان ، احتجت حين شدوت نبذة من الكلام المنثور إلى معرفة هذا العلم المذكور ، فشرعت عند ذلك فى تطلبه والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك فى تحصيله سبيلا إلا نهجته ولا غادرت فى إدراكه بابًا إلا ولجته ، حتى اتضح عندى باديه وخافيه ، وانكشفت لى أقوال الأئمة المشهورين فيه كأبى الحسن على بن عيسى (الرمانى) وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبى عثمان الجاحظ ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وأبى هلال العسكرى ، وأبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى ، وأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه ، وقول تعقد الحناجر عليه[1] » .

كذلك قرأ لابن المعتز ونقل عن كتابه البديع والقاضى الجرجانى ونقل عن الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وأبو على الحاتمى (توفى ٣٨٨ هـ) ، وكتابه حلية المحاضرة ، كما قرأ كتاب « مقدمة ابن أفلح البغدادى » التى قصرها على تفصيل أقسام البلاغة ، كما قرأ تذكرة ابن حمدون البغدادى .

ولم يهتم ابن الأثير بذكر شيوخه مع أن الموصل كانت حافلة بكثير من رجال العلم فى هذا العصر أمثال الفقيه محمد بن يونس الموصلى (٥٣٥ — ٦٠٨ هـ) وقد انتهت إليه رياسة أصحاب الشافعى ، وقصده الفقهاء من البلاد ، ودرس بالموصل بعدة مدارس ، ومن علماء اللغة ابن الدهان سعيد بن المبارك (توفى ٥٦٩ هـ) وقد تناول ضياء الدين كتابه « المآخذ الكندية » بالنقد ، وكان أخوه مجد الدين قد درس عليه .

---

(١) مقدمة الجامع الكبير مخطوط « نسخة خدابخش » مصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .